أدب الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة*

د. شوق النكلاوي **

يبقى الأدب على الرغم من تعاقب الأزمان واحدًا من أهم المصادر التي يمكن من خلالها الولوج إلى عقل الطفل ووجدانه منذ مراحل حياته المبكرة؛ ذلك أنه دائمًا ما يكون بحاجة إلى مثيرٍ يتفاعل معه ويصبح قادرًا - عبر التلقِّي من خلاله - على أن يصير فردًا متفاعلًا مع الحياة على تنوُّع مجرياتها وشريكًا فاعلًا فيها.

وأدبُ الطفل كان - دائمًا وأبدًا - منذ ظهوره الأول نقطة انطلاق كبيرة نحو تقديم القيَم والمفاهيم للطفل - أيّ طفل - فعن طريقه يمكن التحليق عاليًا في عوالم من الخيال، تسمح لطفل اليوم أن يسافر في رحلة عبر التاريخ ليعيش في الماضي السحيق عبر قصص التراث الشعبي وحكاياته؛ لينهل من مَعِين الخيال الشعبي الذي توارثته الأجيال واحدًا تلو الآخر. ولعلَّ الجَدَّة الحكَّاءة كانت أحد أهم مصادر الإلهام التي قُدمت للطفل، كما كانت منبعًا أسهم في تكوين الصور الذهنية لكل ما لا يمكن للطفل أن يدركه، وهو ما جعل من ذلك الأدب مُحفِّزًا للعقل ومساهمًا في تشكيل العقل الجمعي للأمم عبر ربط الطفل بتراثه وماضيه، منطلقًا به نحو العيش بفاعليَّة في الحاضر ومحاولة سبر أغوار المستقبل.

كما أنه - من ناحيةٍ أخرى - قد يتيح له أن يسافر في رحلةٍ أخرى نحو المستقبل؛ ليتنبَّأ بما يمكن أن يكون عليه شكل الحياة بعد عشرات بل ربما مئات السنين، بل إن بعض تلك التنبُّؤات يمكن أن تتحول إلى واقع. ولعلَّ كثيرًا من الأمور التي بدت أمامنا واقعًا مَعِيشًا قد بدأت انطلاقًا من خيال كاتب مبدع، في روايات الخيال العلمي وقصصه وبعض قصص التراث الشعبي، وهو الأمر الذي يؤكد – بلا أدنى شك - أن الأدب يلعب دورًا بالغ الأهمية والخطورة في صنع المستقبل

* (أعدت الورقة بالشراكة بين المجلس العربي للطفولة والتنمية والشبكة العربية للطفولة المبكرة، وعرضت في الدورة 55 من معرض القاهرة الدولي للكتاب).

* مدرس أدب الطفل - كلية التربية للطفولة المبكرة - جامعة مطروح.

للشعوب كافة، عبر العمل - بشكلٍ مقصودٍ أو غير مقصود - على أن يُسهم في تكوين رؤية الطفل نحو مستقبله.

وللأدب – لا سيَّما في مرحلة الطفولة المبكرة - دورٌ أساسيٌّ في مجالات التعليم كافة؛ وبخاصة ما يتعلق منها بمشروعات التطوير التربوي التي يتوقف نجاحها على مدى وعي المساهمين فيها والقائمين على تنفيذها وإدراكهم العميق لغاياتها وأهدافها والنتائج المَرْجوَّة من ورائها؛ إذ إنه ليس من الميسور أن نجد أدبًا يراعي الأهداف التربوية في ظل ما يمر به العالم من متغيرات في الوقت الراهن؛ ومن ثَمَّ فإنه ينبغي أن يكون ثمَّة إلمامٌ كافٍ بخصائص الوسائط الأدبية، مع امتلاك الثقافة التربوية التي تُمكِّن من إيصال الرسائل التي ينبغي أن يعرفها الأطفال، والتحذير من الممارسات غير التربوية والتنفير منها، والقدرة على التفاعل مع الوسائل المختلفة وتمييز الجيد من الرديء أو ما يمكن أن نطلق عليه التلقِّي النَّشِط.

إن أدب الطفولة المُبكِّرة هو الأكثر أهميةً إذا ما وضعنا في اعتبارنا مدى خطورة الدور الذي يقوم به تجاه أطفال تلك المرحلة، الذين هم بلا أدنى شك أجدَر بأن يكونوا في قلب اهتمام الأدباء والشعراء والمسرحيِّين، بل وغيرهم من صانعي القرار والقائمين على المُؤسَّسات التربوية؛ ذلك أن طفل المرحلة المبكرة هو اللَّبِنة الأولى في بناء أي مجتمع، وهو أول نقطة ضوء تُسهم في هداية أية أمة والسراج الذي يأخذ بيد بقية أفرادها نحو المستقبل المشرق.

والأطفال وبخاصةٍ في تلك المرحلة أكثر عُرضةً للوقوع في شَرَك ما يعتري الصورة المقروءة أو المرئية من عيوب؛ ومن ثَمَّ فإنهم بحاجة إلى مَن يعلمهم ألَّا يكتفوا بما يشاهدونه أو ما يتلقونه؛ بل إن عليهم الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك والوصول إلى مرحلة التفكير في مغزى الكلام بل إلى ما وراء ذلك والتفكير فيما هو أبعد؛ حيث الدلالة وما وراء الصورة أو الكلام عبر تحسين عملية التلقِّي لدى الطفل؛ ليتمكَّن من اكتساب مهارات تُمكِّنه من التفاعل مع تحديات العصر دون أن يفقد ذاتيته وخصوصيته الثقافية، أو بمعنى أكثر دقةً أن يصبح مواطنًا عالميًا محتفظًا بهُويَّته ومنفتحًا في الوقت ذاته على الثقافات المتعددة.

وثمَّة تعريفات عدة لأدب الأطفال كباقي مفاهيم الفنون والآداب المختلفة، وكُلٌّ منها ينظر إلى هذا الأدب من زاوية معينة، أو تناول هذا المفهوم من وجهة نظر قد تلتقي مع غيرها أو قد لا تلتقي سوى في نقاط بسيطة. وبشكلٍ عام يُنظر إلى أدب الطفل على أنه: ذلك النوع من الأدب الذي يُقدَّم لطفل المرحلة المبكرة شعرًا أو نثرًا؛ بُغيةَ الإمتاع والتربية والتعليم سواء أكان ورقيًا أم

عبر التقنيات الحديثة، شريطةَ أن يراعي الخصائص النفسية والاجتماعية والثقافية لأطفال تلك المرحلة، محاولًا السُّموَّ بذائقتهم والمساهمة في تكوين هُويَّتهم وتشكيلها، وإكسابهم القدرة على التفاعل مع ظروف حياتهم المَعِيشة محليًا وعالميًا، باعتبارهم مواطنين عالميين ومحتفظين بخصوصيتهم الثقافية.

وثمَّة مَن يرى أن أدب الطفل هو ذلك النوع الذي يثير في الأطفال لدى قراءته أو سماعه متعةً واهتمامًا، أو يُسهم في تغيير مواقفهم واتجاهاتهم نحو القضايا المُتعدِّدة في الحياة؛ فهو المُحرِّك لعواطفهم وعقولهم وميولهم.

كما أنه ذلك الأدب المُقدَّم للطفل حتى سن الثامنة عبر وسائط متعددة، قد تكون شعرًا أو نثرًا وقد تكون ورقيَّةً أو رقميَّة؛ بهدف إيصال رسالة قد يكون عصيًا عليه أن يفهمها عبر طريقة أخرى، محققًا عنصرَي الإمتاع والإفادة، وهو جوهر ما يتطلَّبه تقديم أي عمل لطفل تلك المرحلة أو غيرها.

وعلى الرغم من تعدُّد تعريفات أدب الطفل فإن ثمَّة سماتٍ مشتركةً فيما بينها، نذكر منها:

- أن أدب الطفل ذو أشكال ووسائط مُتعدِّدة، كالقِصَّة، والشِّعْر، المسرحيَّة، والمقالة، والأنشودة وغيرها من الفنون.
- أدب الأطفال وسيط لنقل المعرفة وتجارب البشرية، بأساليب فنية ممتعة؛ لمساعدة الأطفال على فهم الحياة وتطوُّرها وتحقيق أكبر قدر من المتعة والإفادة معًا.
- أنه أدب يراعي خصائص المرحلة وسماتها النفسية والعمرية.
- مراعاة المعايير الأخلاقية والاجتماعية والتي لا تنفصل عن المعايير الفنية التي تميزه عن غيره من الفنون الأخرى.
- أدب الأطفال بشكلٍ عامٍّ يطمح إلى تحقيق غايات فنية وقيمية واجتماعية تُسهم في نمو طفل تلك المرحلة.
- يعمل الأدب على إشباع حاجات الطفل ورغباته من العاطفة والخيال، مع تعزيز المُثُل والقيَم والنماذج الإيجابيَّة والأفكار البنَّاءة ورفض الأفكار الهدَّامة والباليَة.
- إشباع حاجات الطفل مع الإسهام في التنشئة الاجتماعية لأجيالٍ تساعد في بناء المجتمع؛ ليصير أحد الأعمدة التي تساعد على تكوين شخصية الطفل بإسهامه في نُموِّه العقلي والنفسي والاجتماعي واللغوي.

- أدب الطفل يقوم بوظائف التربية الوجدانية والجمالية والأخلاقية والتنشئة الاجتماعية والنمو اللغوي وتربية الذوق الفني؛ ومن ثَمَّ فهو متعدد الأهداف والرؤى التي يمكن تحقيقها بوسائل شتى: ورقية أو رقمية، فهي تراعي الأصالة مع الأخذ بآليَّات العصر وسماته التي تتفق وروح طفل اليوم.

أهداف أدب الطفل:

تتعدَّد أهداف أدب الطفل ويوضحها الشكل التالي:

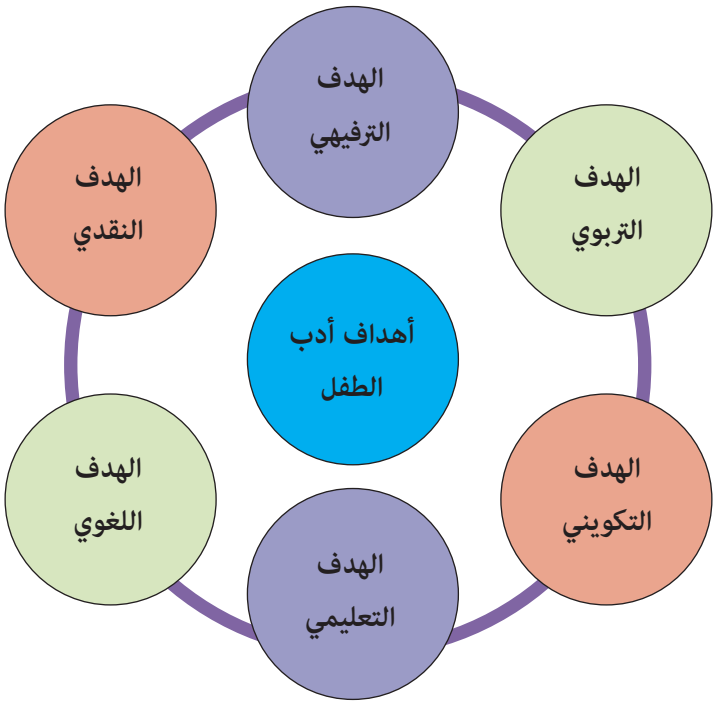

الهدف الترفيهي: إن مراعاة أغراض التسلية والأهداف الترفيهية في أدب الأطفال، لا يُراد لذاته بل إنه وسيلة لتثبيت القيَم الرفيعة التي تبني شخصية الطفل؛ فمما لا شك فيه أن الطفل يحب الترفيه عن النفس ويعاني أحيانًا الإصابةَ بالملل والسأم كما يُصاب الكبار بل أكثر؛ ومن ثَمَّ فإن أية موضوعات جادة إذا ما قُدمت له في إطار من الترفيه فإنه سيُقبل عليها، بل إنها ترسخ في ذهنه بصورةٍ أفضل مما لو قُدمت له خاليةً من التسلية والترفيه، ذلك أن الشعور بالمتعة

والراحة والاستمتاع لسماع القصص وغيرها من ألوان الأدب الأخرى، يُسهم بقدرٍ وافرٍ وكبير في بناء القدرة على الفهم والحفظ وتقوية الذاكرة وسرعة الانتباه؛ لذا فإن الهدف الترفيهي يُعد البوَّابة أو الجسر الذي تعبُر من خلاله بقية أهداف الأدب الأخرى، فمن أهم أهداف أدب الطفل الشعور بالمتعة والراحة والاستمتاع لسماع القصص وغيرها من ألوان الأدب الأخرى.

الهدف التربوي: يُعدُّ أدب الطفل من أهم وسائل التربية الحديثة بما يتضمَّنه من عناصر متنوعة تخاطب عقل الطفل ووجدانه، فهو أحد أهم وسائل التربية الراقية والمؤثرة؛ بحكم كونه يخاطب حواسَّ الطفل المختلفة، فعن طريقه نستطيع أن نرسِّخ الكثير من القيَم الاجتماعية والخُلُقيَّة والعادات والتقاليد في عقول الأطفال ووجدانهم، كما أنه يعمل على تخليص الأطفال من الانفعالات الضارة كالعنف بأنواعه والعدوان وغيره من الانفعالات، من خلال ما يقدمه من نماذج مُؤثِّرة، كما يعمل على تهذيب أخلاق الأطفال بما يتضمَّنه هذا الأدب من قيَم إيجابية ومُثُل عليا نبيلة، مثل: القيَم الاجتماعية التي تتضمَّن وحدة الجماعة، وقواعد السلوك مثل: التواضع، الأخلاق، الصداقة، العدالة، الطاعة، والقيم الوطنية مثل: حرية الوطن، وحدة الأقطار العربية، والقيم الجسمانية كالطعام، والراحة، النشاط والصحة، والقيم الترويحية التي تتضمن الخبرة الجديدة، الإثارة والجمال، والمرح.

فالأدب ابن بيئته ومؤثر في محيطه ومتأثر به، وأدب الطفل إضافة نوعية في التربية والتعليم وإسهام في تثبيت القيَم التربوية وتحسين ثقافة الطفل وتعليمه، فهو يستثمر حب الأطفال للاطِّلاع والمعرفة فيزودهم بما اختار لهم ذوو الخبرة والتجربة في هذا الباب؛ ذلك أن الإحساس بحاجة الأطفال إلى المعرفة يُعدُّ جزءًا من تكوينهم الفطري الذي يُولَد معهم وينمو بنُموِّهم، ويتصل بهذه المعرفة وحب الاستطلاع رغبةُ الطفل في التعرُّف إلى بيئته واكتشاف ما حوله.

وفضلًا عن ذلك فإن المُقرَّرات الدراسيَّة والبرامج التعليميَّة مبنية على نصوص أدبية كثيرة مقتبسة من قصص وأعمال أدبية تنتسب إلى أدب الطفل، وهذه النصوص الأدبية مختارة بدقة وعناية من قِبل خبراء تربويين يراعون فيها مناسبةَ كثيرٍ من المعايير المناسبة لكل منها، سواء تمثلت في النص الأدبي أم المقالة أم القطعة الشعرية أو المقطع الروائي لمحور الدرس؛ ومن ثَمَّ فإن أدب الطفل يكون - من خلال تلك النصوص المنتقاة - حافزًا للطفل على اكتشاف الجديد حول البيئة والمجتمع والعالم أيضًا، كما يتيح له التعرف إلى مفاهيم كثيرة جديدة في الأدب والعلوم، حيث إن تعليم الأطفال أشياء جديدة يساعدهم على فهم الحياة والتكيُّف معها.

وتأسيسًا على ما سبق فإن أدب الطفل يُعد من أهم مصادر التربية والتعليم، لا تقلُّ قيمته عما يتلقَّاه الأطفال في البيت والمدرسة والمجتمع بوصفها وسائل من وسائل التربية.

ومن ثَمَّ فإن على علماء التربية أن يسعوا جاهدين نحو العمل على استثمار مواهب الأطفال ومهاراتهم في التلقِّي والتجاوب؛ بُغيةَ انتقاء المواد المناسبة لهم تلك التي تبني فيهم روح الإبداع والمبادرة وحب الاستطلاع والاكتشاف، وتُنمِّي فيهم روح الأُخوَّة والمحبة والتسامح والمُواطَنة، وتُنفِّرهم من مشاعر الأنانية وحب الذات والتمحور حولها.

الهدفُ التكوينيّ: يلعب أدب الطفل دورًا مهمًا في تكوين شخصية الطفل وبنائها بناءً سَوِيًا؛ وذلك عبرَ العمل على تخليصه من التمحور حول ذاته والاستبداد برأيه؛ وبذا يوسع من آفاق حياته، فضلًا عن إجابته عن آلاف التساؤلات التي تدور في ذهنه بطريقة شائقة وفي صورة فنية واضحة، فتعليم الأطفال أشياءَ جديدةً من خلال الوسائط الأدبية المختلفة يساعد في تكوين شخصية سَوِيَّة متصالحة مع نفسها ومع المجتمع والعالم من حولها، وقادرة في الوقت ذاته على التفاعل مع المحيط بإيجابية.

الهدفُ التعليميّ: يُعدُّ التعليم من الأهداف الأولى لأدب الأطفال، فعن طريقه يتلقَّى الأطفال مختلِف العلوم والمعارف بأسلوب ممتع وشائق، كما يعمل على تنمية الجانب المعرفي لديهم، وذلك عبر إمدادهم بثروة لغوية هائلة، فضلًا عن تقوية مَلَكة التفكير والذاكرة عند الأطفال والقدرة على ربط الأسباب بالمُسبِّبات؛ ومن ثَمَّ وضعهم على أول طريق التفكير المنطقيّ.

وكما هو الحال في علم التربية، فإنه يمكن لأدب الطفل أن يكون قوةَ دفعٍ كبيرةً ومحفزًا للوصول لنتائج بعيدة المدى؛ فعملية التعليم تتحسَّن وتصبح أكثر متعةً بوجود دوافع، فإذا كان الدافع موقفًا مُسليًا وممتعًا أو قصةً هادفةً أو نشيدًا ذا هدف تعليمي، فإن الفوائد التعليمية ستكون أفضل من الفوائد التعليمية التي تُجنى من الحصص المدرسية الرسمية، التي تقتصر في تقديمها على أسلوب المُحاضَرة والإلقاء الخالي من التفاعلية.

إن أدب الطفل - شأن الفنون الأخرى جميعها - يُعلِّم بشكلٍ غير مباشر، وذلك بعرض الحقائق والأفكار التي يستقي منها الطفل معارفه ومعلوماته، وهناك ملاحظة جديرة بذلك وهي أن الأطفال يحبون أن يَتعلَّموا ولكنهم يكرهون أن يُعلَّموا.

الهدفُ اللغويّ: يعمل أدب الطفل على تنمية الجانب اللُّغَوي وإثرائه لدى الأطفال، فضلًا عن معالجة بعض العيوب اللفظية والأمراض النفسية عند الأطفال، مثل التلعثُم والتأتأة

والخوف والخجل من مواجهة الآخرين، وذلك من خلال لغة بسيطة مُحبَّبة تُقدَّم للطفل نثرًا كانت أم شعرًا، ولكنها لا بُدَّ أن تكون لغةً بعيدةً عن السطحيَّة والإسفاف الذي يزخر به واقعنا المعاصر؛ وكذلك بعيدة عن التعقيد والمبالغة كما يجب أن تكون لغة حيَّة متداولة في كلام الناس أو ما يمكن أن نطلق عليها اللغة العربية المعاصرة؛ ومن ثَمَّ فإن لغة الأدب المُقدَّم لطفل تلك المرحلة ينبغي أن تكون بسيطة مع تقديم بعض المفردات الجديدة، التي يمكن للطفل تعلُّمها واكتسابها من خلال السياقات المُتنوِّعة للنص المُقدَّم.

الهدفُ النقديّ: إن أدب الطفل ينمِّي لديه عنصرَ الجمال ويؤدي إلى تكوين اتجاهات إيجابية تؤثر في أذواق الناس وفي قدراتهم الفنية، ويزيد بشكل إيجابي في الدور الأخلاقي لدى المتلقِّي (الطفل)؛ ومن ثَمَّ فهو يحفِّز على الإتيان بالأفعال الإنسانية النبيلة، ويُذْكِي لديه نزعة إثارة الأسئلة النقديَّة والجدَل النقدي حول ما يشاهد، فضلًا عن تنمية روح النقد الهادف البنَّاء عند الطفل وتنمية قدرته على التمييز بين الجيد والرديء.

وأدب الطفل بما يتضمَّنه من قصص وقضايا تُعرض للأطفال، يصبح بمثابة مرآة يرى فيها الطفل نفسه وعالمه الواقعي، فيستطيع أن يفرق بين الخبيث والطيب ويعمل على ازدراء المفاهيم والأفكار البالية ويحافظ على القيَم والمُثل النبيلة؛ ومن ثَمَّ فإنه ينشأ قادرًا على التمييز ومتمتعًا بعقلية ناقدة قادرة على أن تميِّز بين الأشياء: جيِّدِها ورديئِها.

أهمية أدب الطفل

اهتم المُربُّون والفلاسفة منذ أقدم العصور بالحكاية أو القصة التي يجب تقديمها للطفل بقصد تربيته وتهذيبه؛ لأنها الإطار المناسب الذي يمكن من خلاله تقديم الأفكار والقيَم المراد غرسها فيه، وضمن هذا المفهوم التربوي اهتم المصريون القدماء بالحكاية التي تُقدَّم للطفل والصور والنقوش الموجودة على جدران المعابد توضح بعض القصص، التي كانت ترويها الأمهات والمُربِّيات للأطفال. وقد أولى أفلاطون أهميةً كبيرةً للقصة في تربية الأطفال، وتوصَّل إلى أن القصة هي أحسن وسيلة لتهذيب الأطفال شريطةَ أن تبدأ بالموسيقى؛ ثم تتبعها الحكاية التي يجب أن تكون جميلة؛ حتى تربِّي فيهم تذوُّق الجمال.

ولقد اهتم العرب القَدامَى بقصص الأطفال وحكاياتهم، وأدركوا قيمتها النفسيَّة؛ حيث كانت الأمهات والمرضعات يحكين للأطفال قصصًا عن بطولات الفرسان في الحروب والمعارك.

ولأدب الطفل بشكلٍ عامّ – وأدب مرحلة الطفولة المبكرة على نحوٍ خاصّ - أهمية كبية في تربية النشء وتهذيبه؛ فهو يُعدُّ أحد أهم وسائل التربية الحديثة بفضل ما يحتويه من وسائط متعددة تعمل على تزويد الطفل بالثقافة العامة التي يحتاجها، فهو ذو أهمية كبيرة في حياة الأطفال حيث يمكن أن يسهم في تنمية الطفل لغويًا، من خلال تدريبه على التعبير عن ذاته فضلًا عن تنمية خيال الطفل وإثرائه، وغرس القيَم النبيلة في نفوس الأطفال وتلافي المفاهيم الهدَّامة، وتدريب الأطفال على المهارات المتنوعة كمهارات التواصُل والتحدُّث والاستماع الفعَّال والإيجابي، وإكساب الطفل العديد من القيم من خلال تنمية فهمه للآداب المختلفة: الشفاهيَّة منها والكتابيَّة.

بالإضافة إلى خلقِ جَوٍّ من الأُلْفة بين الطفل والأدب بشكلٍ عامّ؛ مما ينمِّي حبَّه للقراءة والاطِّلاع ويعمل على ارتباطه بهما منذ سِنِي عمره الأولى، كما يمكن أن يعمل على تقوية إحساس الطفل بالجمال وتنمية نزعته نحو المُثُل العُليَا كالحق والخير والجمال.

معايير الكتابة لمرحلة الطفولة المُبكِّرة وأُسُسها الإبداعيَّة والنفسيَّة

إن الكتابة للأطفال تحتاج إلى دراسة واعية كما تحتاج إلى الغوص في أعماق الطفل واكتشاف خصائصه العقلية والنفسية، مما يُمكِّننا من تحديد ميوله واتجاهاته واهتماماته؛ لذا فهي تُعدُّ من أصعب أنواع الكتابة لا كما يتصور البعض. إذ إن الكاتب في أدب الطفل لا بُدَّ أن يكتب بروح الطفل ووجدانه وعقله فثمَّة فارق بين أن تكتب للأطفال وأن تكتب عن الأطفال، ولما كان الطفل متأثرًا بكل ما يسمعه أو يقرؤه أو يشاهده، فإنه لا بُدَّ من توخِّي الحذر في كل ما يُكتب للطفل ويُقدم له، وأدب الطفل مجال واسع لنشر التبعية الثقافية والإعلامية؛ حيث يتلقَّى الطفل الإنتاج الأدبيَ والفنيّ الغزير في شتى الفنون والوسائط بقصد التأثير في تكوينه، والترويج للنمط الثقافي الذي يعيش فيه، هنا يطرح السؤال التالي نفسه: هل كل كاتب أدب يصلُح أن يكون كاتبًا لأدب الطفل؟

الإجابة بالطبع لا؛ ذلك أن الأدب المُقدَّم للطفل يحتاج إلى كاتبٍ خاصَ، فليس كل كاتب أدب يصلح لأن يكتب للطفل؛ فهو يحتاج فوق موهبته الأدبية إلى موهبة أخرى لديها القدرة على استيعاب عالم الطفل، والقدرة على استرجاع رصيد تجاربه في زمن الطفولة، بل أكثر من هذا فإن أدب الطفل يحتاج إلى أن يحوِّل هذه الأحاسيس بالطفولة إلى ممارسة حيَّة مرتبطة بحياة

الأطفال ومشاعرهم، وخيالهم، ومن ثَمَّ يستطيع أن يقدم لهم من العبارات والأساليب الحوارية؛ كما أنه بحاجة إلى إتقان أصول الأدب بتقاليده وقواعده، ثم يوظِّف ذلك فيما يكتب للطفل. والكاتب الناجح حين يعرف الأصول العامة للكتابة الأدبية ثم يطبق معلوماته على ما يكتب للأطفال، فسوف يدرك أن عالم الطفولة عالم متغير ومتطور، ينتقل الطفل عبر مراحله المختلفة ولكل مرحلة اهتماماتها وميولها وخصائصها الفكرية والسلوكية والمزاجية والعاطفية، كما أن لكل مرحلة مقدرتها الإدراكيَّة على فهم الصور والمعاني والمضامين؛ ومن ثَمَّ فالكتابة للأطفال تتطلَّب منه رصد حركة الشخصية الإنسانية في مراحل نُموِّها، وتطوُّرِها؛ حتى تأتي كتاباته مراعية لمُتطلَّبات كل مرحلة ومتوافقة معها.

ويمكن تقسيم مرحلة الطفولة المبكرة إلى مرحلتين أساسيتين لكُلٍّ منهما خصائصُها العقلية والنفسية واللغوية والاجتماعية، وما يتناسب مع تلك الخصائص من أدب. والتقسيم هنا لا للانفصال بين تلك المراحل وإنما لغرض الدراسة، فالمراحل العُمْريَّة متداخلة ومتشابكة ومتتابعة يكمل كُلٌّ منها الآخر، وفيما يلي تقسيم لتلك المراحل وبيان خصائصها:

أولًا: مرحلة ما قبل القراءة (من الشهور الأولى حتى ثلاث سنوات)

في الشهور الأولى من عمر الطفل نلاحظ أنه يستكشف الأشياء من حوله عن طريق سماعها أو النظر إليها أو لمسها والتعرُّف بخصائصها؛ لذا فإنه من المُفضَّل تقديم بطاقات تحتوي على كلماتٍ بخَطٍّ بارزٍ أو أشكالٍ بارزة يلمسها الطفل أو لُعَب يستطيع فكَّها وتركيبها، ذات ألوان جذابة؛ ونظرًا لما يتمتع به الطفل في هذه المرحلة من صفات وخصائص، فإنه يجب أن يحوي الأدب المُقدَّم له مفاهيم ومعلومات بسيطة تدور في عالمه ومحيطه، مثل: (الحيوانات - الطيور- أفراد الأسرة... إلخ) والتي تزيد من حصيلته اللغوية، كما يمكن تقديم الأدب لتلك المرحلة عبر وسيط سمعي بصري يجمع بين الصوت والصورة في آنٍ واحد، وعندما يصل الطفل إلى عمر سنتين فإنه يستطيع أن يحفظ أسماء الأشياء التي تعبر عنها الصور، كما تصبح لديه القدرة على قراءة الأحداث من خلال الصور، وفي هذه المرحلة يمكن أن تُقدَّم له قصة قصيرة تحتوي على عددٍ من الصور الموضحة لكلمات القصة، أو أناشيد مُصوَّرة أو مسموعة، فيستمتع الطفل بتقليب الصفحات والنظر إلى الصور والاستمتاع بها، ويستطيع الطفل حفظ أسماء الأشياء التي تعبر عنها تلك الصور بالتكرار، ينظر إلى الصورة ويتحدث عنها وينسج حكاية حولها من وحي خياله؛

لذا يُفضَّل أن تكون القصة تحتوي على كلماتٍ قليلةٍ ذات ألوان زاهية، مصنوعة من الورق المُقوَّى.

ثانيًا: مرحلة القراءة (الطفل من عمر ثلاث سنوات حتى ثماني سنوات)

ويتميز الطفل ذو الأعوام الثلاثة بالنزعة نحو الاستقلال والتملُّك وإثبات الذات والتركيز أثناء لعبه ونشاطاته، كما يتمتع بقوة الملاحظة لما يدور حوله من ظواهر طبيعية واجتماعية وغيرها؛ لذا فهو يميل إلى القصص والحكايات القصيرة التي تدور حول تجارب وخبرات حياتيَّة مماثلة لما يجده حوله في الواقع من أحداث ومناسبات. ونظرًا لضعف قدرته الاستيعابية في هذه المرحلة وصعوبة إدراكه لكثرة الأحداث والمواقف في القصة الواحدة؛ فإنه يُفضَّل أن تحتوي القصة على مشكلة أو ظاهرة واحدة تقرؤها الأم أو المُربِّية أو الحَكَّاءة أيًا كانت، وعندما يصل إلى الرابعة من عمره تتسع دائرة معارفه، فيستطيع ربط الأفكار ببعضها، ويقلُّ اعتماده على القراءة من خلال الصور ويزيد اعتماده على الكلمات، كما أنه يميل إلى الأناشيد والأشعار.

بينما يتميز الطفل في عمر الخامسة بالجدِّية والابتكار أثناء لعبه، كما يُظهر اهتمامًا كبيرًا نحو التعليم وشغفًا بالمعلومات الجديدة ويتطلع إلى معرفة كل ما يمرُّ به من أمور الحياة، كما تزداد لديه القدرة على تقمُّص الشخصيات وتمثُّلها؛ ومن ثَمَّ يستطيع الإجابة عن الأسئلة التي تُطرح عليه بعد سماع قصة أو مشاهدة مسرحية أو ترديد أغنية، كما يستطيع توقُّع نهاية للقصة وتزداد علاقته بالأدب رسوخًا، ويمتلك القدرة على تمثُّل الأدوار والتعبير من خلال التمثيل أو المحاكاة.

وفي عمر السادسة والسابعة من عمره تزداد عمليَّتا الإدراك والانتباه لديه وتنمو القدرة على التخيُّل، ويتسع فضوله وشغفه بالمعرفة والاستكشاف فيميل نحو القصص التاريخية، كما يُفضل اختيار كتابه بنفسه.

وفي الثامنة من عمره يتميز بزيادة القدرة والانتباه على التركيز، والاستقلاليَّة في القراءة، فيستمتع بما يقرأ، ويحب قصص المغامرات، والحروب والأشباح.

أدبُ الطفل التفاعُليّ

يُعدُّ الأدب واحدًا من الأعمدة الأساسيَّة التي تقوم عليها ثقافة الأطفال، بوصفه وسيطًا

محببًا ومقبولًا لدى الطفل الذي يحتفي دائمًا بالقصص والدراما، باعتبارها ناقلًا لمُقوِّمات الثقافة من فكرٍ وتاريخٍ وعاداتٍ وقيَمٍ وتقاليد، وقد مرَّ ذلك الأدب بثلاث مراحل؛ هي: المرحلة الشفهية والمرحلة الكتابية والمرحلة الإلكترونية، ولكل مرحلة من تلك المراحل خصوصيتُها التي تُميزها عن سابقتها وتجعلها مختلفةً عنها اختلافًا جوهريًا.

وبالرغم من ذلك الاختلاف فإن العلاقة بين كل مرحلة وأخرى هي علاقة تَجاوُريَّة تَواصُليَّة لا تؤدي على أية حال إلى القطيعة، فإذا ما نظرنا إلى المرحلة الأخيرة (الإلكترونيَّة أو الرَّقميَّة) فهي محاولة لرسم روح العصر وتوضيحها؛ وهي بمثابة نقلة حضارية في جوانب الحياة كافة كما أنها تُعد قفزة نوعية في مجالات الأدب الإنساني؛ ولقد كان لانتشار الثورة المعلوماتية والرقمية أثره الكبير الذي شمل مناحي الحياة الثقافية والعلمية المعاصرة؛ الأمر الذي بات لزامًا على الجميع - في ظل ذلك - ضرورة التأقلم مع الوسائط الرقمية؛ ومن ثَمَّ لم يعُد بمقدور الإنسان الاستغناء عن هذا الوسط الافتراضي. كما أن الأدب لم يسلَم من تأثير التكنولوجيا الرقمية؛ فظهر ما يُسمَّى بالأدب التفاعلي ليتكامل مع مختلف العلوم والمعارف، بعد أن كان مقتصرًا على الواقع المادي المحسوس فانتقل إلى الواقع اللامادي الافتراضي، ليصبح أكثر تطورًا بفضل المؤثرات الرقميَّة (السمعيَّة والبصريَّة) التي يقدمها عبر الوسائط المختلفة، منتقلًا بالحالة الأدبية من مجرد الاكتفاء بممارسة الأدب باعتباره عملًا يقوم على التواصُل المباشر والحي، إلى مرحلةٍ صار معها يتم عبر المنصَّات الافتراضية. بل صار بمقدور الذكاء الاصطناعي أن يكون بديلًا عن الإنسان الحي، بل إن ثمَّة محاولات لإقصاء العنصر البشري ليحلَّ الذكاء الاصطناعي بآليَّاته وتقنيَّاته عوضًا عنه، فصار من الممكن تأليف كتاب للطفل في دقائق قليلة.

كما أن خاصيَّة التفاعُليَّة من أهم خصائص أدب الطفل الرقمي حيث إن الطفل بطبعه ميَّال إلى الحرية يكره الأوامر والنواهي، ويُبدع وينجذب للبيئة التي تُتيح له حرية الاكتشاف والإبداع، فتعمل على تنمية الذكاءات المختلفة لدى الطفل وثقافته بشكلٍ عام.

ويُعدُّ الأدب التفاعلي مصطلحًا جديدًا وشكلًا من الأجناس الحداثية التي أوجدتها التقنية، بتطوراتها المتلاحقة على جميع المستويات: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ويمكن تعريف الأدب التفاعُليّ بأنه كل عمل إبداعيّ يستخدم مُتعلّقات الحاسوب (الوسائط والشبكة العالمية)؛ لإنتاج النصوص أو إنتاج أشكال خاصة كالقصيدة الحيَّة التي يمكن للمبدع أن يطوِّرها ويحذف منها متى شاء بخلاف الكتاب الورقي الذي لا يتيح ما يتيحه الكتاب الرقمي،

ويكون لهذا النتاج التفاعلي صفة التشارُكيَّة والتعليق في وقتٍ واحدٍ أي مشاركة القارئ للمبدع في العملية الإبداعيَّة، وربما اشترك في النص الإبداعي أكثر من أديب من خلال النصوص المشتركة، فتكون قراءة قصيدة أو تلاوة حكاية مرفقة بصور معروضة وأصوات موسيقية توضع بمثابة الخلفية؛ من أجل إيصال العمل على النحو الذي تخيَّله صاحبه وقصد إليه، يكون العمل الأدبي التفاعلي يخاطب أكثر من حاسَّة من حَواسِّ المُخاطَب، وتكون تلك الوسائل والوسائط المستخدمة في الالتقاء عبارة عن دَوالّ لمدلولاتٍ هي مضمون الإبداع الشعري أو الأدبي بعامَّة، وهنا تتجلى السرعة في التلقِّي وانتقال الأثر بشكلٍ أسرع؛ ومن ثَمَّ يصبح أكثر تأثيرًا وأسرع انتشارًا، كما تتيح شبكات التواصل الاجتماعي التواصُل اللَّحْظيّ".

والنص الرَّقَمي (أو التفاعُلي أو المُتشعِّب) لا يعبر عن معانيه بالألفاظ فحسب، بل يتيح إمكاناتٍ متعددةً مثل الجداول والأصوات والصور والرموز.

شروط أدب الطفل التفاعليّ وصفاته

تلخِّص فاطمة البريكي شروط الأدب التفاعلي في النقاط التالية:

- أن يتجاوز الآليَّة التقليديَّة في تقديم النص الأدبي.
- أن يتحرر الأديب من الصورة النمطيَّة التقليديَّة لعلاقة عناصر العمليَّة الإبداعيَّة بعضها ببعض.
- الاعتراف بدور المتلقِّي في بناء النص وقدرته على الإسهام فيه.
- الحرص على تقديم نص حيوي، تتحقق فيه روح التفاعل الحقيقية لتنطبق عليه صفة التفاعلية.

وهو أكثر مرونة؛ لأنه يقبل إدماج نصوص مختلفة، شَفهيَّة ومَرئيَّة تتجاوز النصوص إلى خطاب متكامل...

ثم إن القارئ يمكنه تغيير مجرى أحداث القصَّة التفاعُليَّة، أو التحكُّم في مسار قراءة الأبيات الشعريَّة، أو تحديد مصير أبطال المسرحيَّة.

الأدب التفاعليّ من جهة أنه في الأصل إما أن يكون شعرًا، أو مسرحية، أو قصة، أو رواية، وهو أدب إلكتروني، من جهة أنه لا يمكن لهذا الفن الأدبي، مهما يكُن نوعه، أن يتأتَّى لمُتلقِّيه في صيغته الورقية، فلابد له من الظهور في صيغته الإلكترونية.

وترى الباحثة أن صفة (التفاعُليَّة) ليست مقتصرة فقط على الأدب الرقمي بل إنه يمكن تحقيقها في أشكال الأدب كافة؛ إذ إن التفاعلية هنا تعني أن يكون الطفل المتلقي قادرًا على أن يعيش حالةً من الشراكة مع المبدع وألَّا يقتصر دوره على التلقِّي السلبي، بل ينبغي أن يكون مساهمًا في صنع النص ومتفاعلًا معه أيًا كان شكله أو الوسيط الذي يُقدم من خلاله، حيث يتيح الأدب التفاعلي للأطفال فرصة الحوار الحي المباشر، وذلك من خلال المواقع التي تقدم النص التفاعلي.

تتعدَّد صور التفاعل في هذا الأدب بسبب تعدُّد الصور التي يُقدم بها النص الأدبي نفسه إلى المُتلقِّي، ففي الوقت الذي يتخذ التفاعل صورةً واحدةً في الأدب التقليدي وهي صورة الكتابة النقدية على هامش الكتابة الأدبية، فإن التفاعل في الأدب التفاعلي يتخذ أشكالًا متنوعة.

والنص في الأدب التفاعلي للطفل يجب أن يُكتب وفق معايير الأدب التفاعلي وقواعده، مع مراعاة تقنيَّات الكتابة الأدبية للأطفال وما يتطلبه من جوانب تربوية ونفسية، ويتفاعل الطفل مع هذه النصوص من خلال إتمام النص وإكماله والتعليق عليه وغير ذلك من وجوه التفاعل والمشاركة.

كما أن كاتب الأدب التفاعلي للأطفال، يُفسِح المجال للطفل ليشاركه الكتابة، وأن يتدخل حيث يجب التدخل، وأن يتفاعل معه عبر هذا الفضاء مستخدمًا الصوت والصورة واللون والحركة، فيصبح لدينا أدب للأطفال يقوم على تفاعل كبير بين أديب الأطفال والطفل المتلقي، وهنا يكتسب الطفل صفة المساهمة المُنتِجة ويتحوَّل إلى مبدعٍ من درجة ثانية تتحقق إبداعيته من خلال إسهامه في العملية نفسها، حيث لا يبقى مكتفيًا بمتابعة النص بعينه، وإنما يكتب النص بطريقته الخاصة.

ونستنتج مما سبق أن للأدب التفاعلي عناصرَ ومُكوِّناتٍ عدَّةً تميزه عن الأدب التقليدي وتعمل على جذب انتباه القراء الصغار، نذكر منها:

إن أهم ما يتميز به الأدب التفاعُلي الصورة والحركة والموسيقى والمُؤثِّرات الصوتية، وهذا أمر يغري الطفل؛ فالطفل ميَّال بطبعه إلى الأصوات، وهو إيقاعيٌّ بالفطرة، فهو يُنصت لصوت أُمِّه حين تغني له أغنياتٍ ذات إيقاع رتيب في الغالب لتهدئته وتَبثُّ الطمأنينة في نفسه، وتراثنا العربي الشعبي حافلٌ بوافرٍ من هذه الأغنيات التي تُسمَّى بأغاني المهد والترقيص.

من هنا فالموسيقى تلعب دورًا مهمًا في الأدب التفاعلي؛ فهي تبعث فيه الحيوية وتبثُّ فيه

الروح، كما أنها تزيد من تفاعل الأطفال معه؛ وذلك من خلال ما تقدمه من تشويق وإيقاع وعبارات لحنية، فاقتران السماع بالمشاهدة والتداخل والتفاعل فيما بينهما يشكِّل المضمون الفكري والجمالي والتعبيري للعمل الأدبي.

لذا فإنه ينبغي أن تتناسب الموسيقى مع طبيعة الأدب المُقدَّم للطفل، فهي تحتوي على خصائص فنية وإيقاعية تعمل على جذبه والتأثير فيه وشد انتباهه؛ وبالتالي إقناعه بما يحمله العمل الأدبي من مضامين، كما يجب الابتعاد في - الأدب التفاعُلي المُقدَّم للطفل - عن الموسيقى الصاخبة التي تعمل على تحطيم نفسية الطفل.

القِصَّة الإلكترونيَّة للأطفال

يُعرِّف فرج الظفيري القصة الإلكترونية للأطفال بأنها "مصطلح جديد على الأدب، وهي مرتبطة بالكتاب الإلكتروني... من تعريفاتها: تحويل أو إخراج أو إعداد قصة مُؤلَّفة من قبل تأليفًا بشريًا وليس إلكترونيًا، وتعمل القصة المؤلفة على وسيط إلكتروني من خلال إضافة بعض التقنيَّات الجديدة المتعلقة بالصوت والصورة والذوق والرسوم الكارتونية المتحركة، ومؤثرات موسيقية أخرى مع الاستفادة من خصائص الفيديو في الإرجاع والتقدُّم والتثبيت، أو فيما يُعرف بالوسائط المتعددة.

وتُعرِّف الباحثة قصص الأطفال الإلكترونيَّة بأنها شكلٌ من الأشكال الأدبيَّة كُتبت خصيصًا لهم، بما يتلاءم مع خصائص نُموِّهم واحتياجاتهم، تستمد أحداثها وشخصياتها من بيئته أو من الخيال، تُقدم من خلال وسائط إلكترونية مختلفة، بإمكانية إضافة صوت الراوي، ومؤثرات صوتية ورسوم ذات حركة محدودة، وإضافة صور للنص المكتوب، مع إمكانية التغيير والتعديل فيها وإلغاء بعض خصائصها عند الحاجة إلى ذلك.

التحدِّيات والمُتغيِّرات التي تواجه أدب الطفولة المُبكِّرة في ظل التقدم التكنولوجي

يُعدُّ أدب الطفل في العصر الرقمي عصر ما بعد الثورة الصناعية الرابعة والميتافيرس، أمرًا مُلحًا لخلق المواطن العالمي الواعي بتراثه في ظِلِّ حالةٍ من الانصهار الكبير بين الصوت والصورة، وهو ما أحدث صعوبةً كبيرةً في التمييز بين ما هو واقعي وما هو خيالي؛ لذا تُعدُّ الوسائط المُتنوِّعة لأدب الطفل - بصورها المسموعة والمرئية والمقروءة - في القرن الحادي والعشرين، مدخلًا تربويًا

يمكن أن يُسهم في تنشئة الطفل على المُواطَنة الرقميَّة، التي تتيح له فهم الموضوعات الإنسانية والثقافية والاجتماعية المتعلقة بالتقنيات والممارسات الأخلاقية والتربوية المتعلقة بها؛ مما يجعلها أشبه ببَوْصَلة نستشعر بها وجودنا بين الشعوب والأمم، ونصبح قادرين على تكوين طفل يتجاوز مجرد قراءة ما هو مكتوب أو مشاهدة المرئي، إلى تحليله وإعادة إنتاجه وتطبيقه كممارسة حياتيَّة.

ولقد فرضت التكنولوجيا وجودها الهائل على الإنسان، حيث سهَّلت عمليَّة الاتصال والتواصُل بين الأفراد في مختلف المجتمعات، وجعلت من العالَم قريةً صغيرةً يسهُل التواصل بين أفرادها في أيّ وقت وفي أيّ زمان ومكان؛ ومن ثَمَّ فهي تُسهم بشكلٍ فاعلٍ في تنشئة الأطفال.

ولقد صارت الحياة في القرن الحادي والعشرين أكثر تعقيدًا عما كانت عليه سابقًا، ولن يُكتب التوفيق في هذا القرن إلا لمَنْ يستطيع أن يستوعب التغيُّرات التكنولوجية والمعلوماتية ويعيها ويتفاعل معها، ويتمكَّن من ناحيةٍ أخرى من تحقيق نوع من التوازن بين المُعاصَرة والعَوْلَمَة من ناحية، والحفاظ على أصالته وهُويَّته وجذوره الثقافية من ناحيةٍ أخرى؛ الأمر الذي يعمل على تفجير طاقات الخلق والإبداع واستخدام القدرات العقلية النافذة.

مع نشأة أجيال جديدة من الأطفال المولعين بالألعاب الإلكترونية، والذين يمتلكون مهاراتٍ غير مسبوقة في التعامل مع العالم الإلكتروني، ومع ازدياد هذه المهارات جيلًا وراء جيل تماشيًا مع التطور التكنولوجي ذاته، وكما يدور حديث عن أن المستقبل سيكون للكتاب الإلكتروني بديلًا للورقي، بالنسبة إلى الكبار، حتى وإن ظلَّ للأخير مُحبُّوه والمتعلقون به، فإن الأمر في حال الأطفال مختلف إلى حَدٍّ بعيد؛ كَوْن أطفال اليوم لا يملكون ذاكرة العلاقة مع الورقي التي لدى الكبار، فهم ينمُون ويكبُرون في تعاملٍ مباشرٍ مع كل ما هو إلكتروني.

يبقى أن المهم هو تلقِّي المعرفة واكتسابها، بقطع النظر عن الطرق والوسائل، ويمكن أن تكون وسائل التقنية الحديثة هي التي ستؤسس معارف الأطفال، ربما بطريقٍ أسرع مما كان عليه مع الوسائل التقليدية، لكن يظل السؤال حول محتوى ما يُقدَّم من مواد ومعارف لهم عبرها، فهل هي فعلًا تغرس القيَم والآراء السَّوِيَّة التي كان أدب الأطفال الورقي، يقدِّمها، أم إنها على العكس من ذلك تهدف إلى إيصال رسائل قَصْديَّة بوساطة منتجيها وصانعيها؟

وعلى الرغم من تراجع معدلات القراءة لدى الأطفال في مجتمعاتنا العربية، فإن هذا لا ينفي شغفهم لتلقِّي المعرفة، بما في ذلك عبر القراءة، وهو شغف على المدارس غرسُه في نفوسهم

وتطويره بَحثِّهم على المزيد من القراءة وتربيتهم على ذلك، سواء أكان ذلك عبر الكتب الورقية أم الوسائل الإلكترونية؛ خاصةً وأنه لا يمكن القطع، في حال الأطفال بالذات، بأولوية الكتاب الورقي؛ فالحكمة هنا هي مواكبة التطوُّر التكنولوجي وتوظيفه بشكلٍ خلَّاق ومبدع.

والكتاب الإلكتروني لا يمكن - على الأقل حتى الآن - أن يكون بديلًا حقيقيًا عن الكتاب الورقي، كما أن تراجع نسبة اقتناء الكتب المطبوعة لن يلغي مستقبلها وانتشارها لكونها لا تزال جزءًا من العملية التعليمية، ولابد أن تجد وسائط جديدة لتصل بشكلٍ لافتٍ وجذاب للطفل الذي يمسك الآيباد والهاتف أكثر الوقت، ففي الوقت الحالي السريع صار من الحتمي على كُتَّاب أدب الطفل تغيير مضامينهم وشكل القصص؛ حتى تتماشى مع المُنجَز الجديد لمواكبة تطلُّعات الجيل الجديد من الأطفال، الذين صار تعلُّقهم بالتقنية أمرًا واقعًا لا يمكن تغافله. بل إننا نستطيع الجزم بأن طفل اليوم منذ سِنِي عمره الأولى ورغم أنه قد لا يكون قد عرف القراءة، فإنه يستطيع التعامل مع التقنيَّة بطريقةٍ تدعو إلى الإعجاب والدهشة؛ ومن ثَمَّ فإن صُنَّاع الكتب لا بُدَّ أن يتسلَّحوا بآليَّات تُمكِّنهم من تقديم كتب تخاطب الطفل بلغته التي يُجيدها، باعتبار ذلك أحد الأدوات المهمة للتغيير.

كما أننا نحتاج لكُتَّاب متخصصين بنمُوِّ الطفل، يملكون المواصفات الضرورية للكتابة الإبداعية والتربوية للفئة العمرية التي يتوجهون إليها لأن الطفل يتأثر بالمادة المكتوبة. كما أن ذائقة الطفل الأدبية تتبدَّل مع تبدُّل العصر والأحداث، ومروره بتجارب وخبرات لم يمرَّ بها الأطفال منذ 50 عامًا.

نستطيع أن نقول إننا بحاجة إلى كتابة مُتجدِّدة مع تجدُّد العصر وتُوائِم الأحداث التي يمر بها، كتابة تعبِّر عن الأزمة التي يمر بها العالم؛ الحروب، التناقضات العالمية التي حولنا، وأزمة كورونا، والفضاء. وأن نعزز مفاهيم فكرية مهمة، مثل التفكير الحُرّ، ونبذ العنصرية، وتقبُّل الآخر، والمبادرة والتفكير خارج الصندوق، بحيث يقدم العمل الأدبي إجاباتٍ لأسئلة الطفل حتى من الناحية الفنية والجمالية للكتاب.

نماذج تطبيقيَّة من أدب الطفل العربي

"قرية الأحلام" لهيثم الخواجة (سوريا - الإمارات)

هيثم يحيى الخواجـة باحث وكاتب وناقد مسرحي وقاصٌّ سوريَ، حاصل على دكتوراه

في فلسفة المسرح، عمل أمينًا لتحرير مجلة المُلتقَى الأدبي، ورئيسًا لتحرير مجلة بلدية رأس الخيمة، أسهم في تأسيس مجلة الرافد الإماراتية، ومجلة نخيل، ومجلة الملتقى الأدبي ومجلة شؤون ثقافية في الإمارات. نال جوائز عدة منها وهو عضو اتحاد الكُتَّاب العرب.

له العديد من الأعمال المسرحية للأطفال، منها: (القاضي الصغير - القطة السوداء – الفرسان الثلاثة - قرية الأحلام – أسرار المغارة - مدينة الزهور – أبو ليرة - الكنز/ الحقيبة الملعونة - نقيق الضفادع - الوعد الجميل)، وسوف نتوقف بالتحليل عند مسرحية "قرية الأحلام"؛ لما تحويه من قيَم ثقافية تعمل على تنمية الهُويَّة الثقافيَّة للطفل العربي.

ومسرحية " قرية الأحلام" هي مسرحية تُعلي من قيمة حب الوطن والانتماء إليه والدفاع عنه ضد أي مُعتدٍ، فالمتأمل لأحداثها سيجد أنها قصة إنسانية تناقش أفكارًا غاية في الأهمية، بطريقةٍ موضوعيَّة، وذلك لوعي المؤلف بأدواته الدراميَّة وكيفيَّة طرحها بشكلٍ جذَّابٍ ومثير، في إطار من المتعة الفنية الفكرية والجمالية، وقد قدمت المسرحية العديد من القيَم التي تعمل على تنمية الهُويَّة الثقافيَّة للطفل، منها:

أولًا: اللغة:

استخدم الكاتب من اللغة ما هو مألوف لدى الأطفال من كلمات وجُمل يشيع استخدامها في حياتهم اليومية المَعِيشة بما لا يتعارض مع اللغة العربية الفصحى، فجاءت الألفاظ في لغة الحوار فصيحةً معاصرة؛ لتدريب الطفل على النطق السليم وإخراج الحروف من مخارجها الصحيحة، من خلال ما يشاهدونه أو يسمعونه أو فيما يكتبونه؛ ومن ثَمَّ ترسيخ اللغة العربية الفُصْحَى في الآذان وعلى الألسنة، فجاء النص حاملًا لغته الفصحى المُبسَّطة، سهلة الفهم والاستيعاب قريبة التناول لدى الأطفال.

ولعلَّ ذلك هو دور الأدب بشكلٍ عامّ؛ إذ يعمل على تنمية الجانب اللغوي وإثرائه لدى الأطفال، وذلك من خلال لغة بسيطة مُحبَّبة تُقدَّم للطفل نثرًا كانت أم شعرًا، ولكنها لا بُدَّ أن تكون لغة بعيدة عن السطحية والإسفاف الذي يزخر به واقعنا المعاصر، وكذلك بعيدة عن التعقيد والمبالغة.

واللغة العربية الفصحى هي الوسيلة الأساسية للتحصيل والتعبير، كما أنها أول الأمور المهة لتنمية هُويَّة الطفل وثقافته، وبدونها لا يتمكَّن الفرد من تنمية حصيلته الثقافيَّة على

أساسٍ سليم؛ خاصةً ونحن نلحظ أن معظم النصوص التي تُكتب للطفل في الوطن العربي تُقدم باللهجات المحلية، فعلى كاتب أدب الطفل توخِّي الحذر عند الكتابة لهم؛ حتى يتمكَّن من غرس الهُويَّة غرسًا سليمًا يتماشى والنظريات التربوية، التي تنادي بتعميق الهوية لدى الطفل منذ الصِّغَر باتِّباع آليَّات ووسائل تتناسب ومرحلته العمرية.

ثانيًا: قيمة حب الوطن والفداء والتضحية من أجله:

تظهر من الوهلة الأولى في النص المسرحي، قيمةُ الفداء والتضحية من أجل الوطن وإعلائه على الذات، والمحافظة على ما توارثه الأبناء عن الأجداد، وقد ظهر ذلك واضحًا منذ لحظة البداية فكان المُفتَتح أنشودةً للغزال الحكيم يستهلُّ بها النص المسرحي، والتي يقول فيها:

داري داري ما أحلاها

نفسي أبدًا تهوَى لُقاها

أنا أعشقُها روحي فِدَاها

فالغزال يُعلي من قيمة حب الوطن واستعداده بأن يفديها بروحه ولا يتردد في التعبير صراحةً وبكلماتٍ لا غموض فيها عن عشقه لداره، التي هي هنا مُعادِل موضوعي للبيت الأكبر وهو الوطن، في إشارةٍ إلى تعظيم قيمة الانتماء، ففي حوار الغزال الحكيم مع الحيوانات جاء نَصُّ الحوار كالتالي:

الغزال: ألم تقرؤوا ما كتبه الأجداد عن أرضنا؟

الغزال: عندما أهملناها صارت هكذا جرداء ولن تعود ما دمنا كذلك.

الأرنب: لن تعود مهما فعلنا أنت تحلم.

الغزال: أيها الأحباب اهدؤوا قليلًا، أنا لا أقصد شيئًا كل ما أريده منكم أن تساعدوني في زراعة قريتنا وبنائها من جديد.

وهنا لا بُدَّ أن يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى حرص الكاتب على توعية الطفل بالدور الذي ينبغي أن يقوم به الفرد من أجل الوطن، والزراعة هنا ليست سوى رمز للخصب والنماء والمستقبل السعيد الذي يجب على الأبناء أن يعملوا من أجله للإعلاء من شأن الوطن، والمساهمة في رُقيِّه ونقله النقلة الحضاريَّة التي يستحقها.

ثالثًا: قيمة العمل:

تتجلَّى قيمة العمل وعدم التكاسل عندما قرر "الغزال الحكيم" أن يعمل بأرضه ويعيش

بخيراتها، وتقرر باقي الحيوانات مغادرة القرية إلى الأبد، وهنا يتنازل الدُّبُّ عن بيته ويقول للغزال: انظر إلى ذلك البيت (ويشير بيده إلى بيتٍ بعيد)، إنه بيت أبي خذه لك دون ثمن مُهدَّم ولا يصلح لشيء.

الغزال: مَنْ تخلَّى عن بيته خسر حياته، وتنتهي المجادلة بين الغزال وباقي الحيوانات بقوله: أنا حزين لأنكم ستندمون.

ونظرًا لاشتمال النص على العديد من المواقف الدرامية التي تُذكِي روح الانتماء وتغذي المشاعر الإنسانية، فقد رأى الكاتب إضافة العديد من الأغنيات، التي تؤكد على الحدث الدرامي والمضمون؛ فالمسرحية تتميز بإيقاعها السريع الذي يتناسب مع طبيعة الطفل الذي قد يصيبه الملل سريعًا؛ ولهذا السبب لجأ هيثم الخواجة إلى توظيف الموسيقى والغناء للمحافظة على الإيقاع العام للعرض، فالموسيقى والأغاني تعمل على شد انتباه الطفل وتحقيق المتعة، ولعلَّ من الأمثلة على ذلك أغنية:

أسفي أسفي واحزناه!
جهل جهل لا أرضاه
هذي القرية شعلةُ أُنْسِي
هذي الأرض بهجةُ نفسي
كيف أغادر؟ كيف أسافر؟
هل يهمل مرءٌ معناه؟ هل يخسر فردٌ دنياه؟

حيث يصور الغزال "الحكيم" خروج الحيوانات من القرية وتركها خرابًا بالجهل، فالوطن هو فرحة النفس والتخلِّي عنه هو تَخلٍّ عن الذات والهُويَّة وهو ما ينذر بطمس الشخصية وانسحاقها.

فالطفل "كائن إسفنجي يلتقط ما يراه ويسمعه ويقرؤه دون فحصٍ أو تمحيص، بل يحاول أن يجربه ويتمثله؛ لأنه ينظر إلى الكاتب بعينٍ ملؤها الرضا والثقة ويعدُّ ما يكتبه صحيحًا نافعًا وأحيانًا لا يفرق بين الرمز والحقيقة، فيقول الغزال:

آه ما أروعَ أن يعمل الإنسان في أرضه!
ما أسعدني وأنا أحضن تراب بلدي!

رابعًا: قيمة الدفاع عن الوطن:

يقدم لنا النص مجموعةً من الأفكار المثاليَّة التي يجب الحفاظ عليها، مثل ضرورة الدفاع عن الوطن والتعاون بين الأشقَّاء لصد أي غزو خارجي، فيقول الأرنب:

الأرنب: عدتُ إلى أرضي لأعاهدك على الوفاء فلن أغادرها أبدًا.

الغـــزال: ولكن الأرض ضاعت والمنازل احتلَّها الغربان.

الأرنب: استغلَّ المجرمون غيابنا واحتلوها أرضنا.. ألَمْ تقاومهم؟

الغـــزال: حاولتُ كثيرًا ولكني لم أنجح فأنا وحدي وهم كُثْر، فالتعاون يهزم أيَّ عَدوٍّ مهما كان، ثم تنضم إليهم باقي الحيوانات تباعًا ندمًا على تركهم لقريتهم فقد أصبحوا مُشرَّدين دون مأوًى، فيقول الديك:

- مَنْ يترك أرضه يفقد وجوده، لقد طُردت كما يطرد الذباب.. هزِئ الناس بي حتى كرهت نفسي... كدت أموت من الجوع والتشرُّد.

ثم يقدم لهم الغزال الطعام فيسأله الأرنب: من أين لك هذا؟

الغزال: من جهدي وعرقي زرعت وحصدت.

الديك: وحدك!

وهنا تظهر حكمة وقيمة أخرى يُدلي بها الغزال لباقي الحيوانات، فيقول لهم:

الغزال: نعم وحدي، مَن يريد أن يعيش لا يعتمد على أحد.

الديك: لقد عدنا وسنعمل إلى جانبك، ونعيد السحر لقريتنا.

يتعاهد الجميع على الموت أو العيش بحرية وسلام، ويقول الغزال: المرء قوي بأهله، فعلًا المرء يشدُّ عَضُدَه بأخيه كما قال الله سبحانه وتعالى: بسم الله الرحمن الرحيم "سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ". وأخيرًا استطاع الجميع التعاون لطرد الغربان واستعادة قريتهم وتعميرها من جديد.

يتركز اهتمام جمهور الأطفال حول البطل، فيتوحَّد الطفل مع البطل فيتابع تصرفاته، ويفرح بانتصاراته، ويحزن لصراعه مع قوى الشر والذي ينتهي بالضرورة بانتصاره على قوى الشر. ومن خلال ذلك الصراع يمكن إعطاء مفاهيم مهمة ومتعددة للأطفال لتضيف إلى خبراتهم وتجاربهم وتُنمِّي أحاسيسهم ومشاعرهم؛ خاصةً إذا راعَى المؤلف الوضوح في كتاباته وابتعد عن الرمزية، وبالطبع لا يُقصد بالوضوح اللجوء إلى المباشَرة أو أساليب الوعظ التقليدية، لأنها أساليب غير فنية وغير محببة للأطفال.

وقد جاء الصراع في المسرحية هادئًا وذلك لملاءمته لمسرح الطفل؛ فالصراع فيه يُقاس بمدى قدرته على تحويل القيَم المعنوية إلى حدثٍ ملموس، فلا يُقاس بقوته، بل بقدرته على التأثير في جمهور الأطفال.

في إشارةٍ سريعةٍ فإن هذه المسرحية سواء على مستوى النص أو العرض، قد ناقشت عددًا من القيم والقضايا التي تعمل على ترسيخ الهُويَّة الثقافية للطفل العربي وتعميقه، ونوجزها فيما يلي:

جاءت الشخصيات مناسبةً لطفل المرحلة المبكرة؛ حيث الأبطال من الحيوانات التي يولعون بها بما تحمله من رمزية لكل شخصية من الشخصيات التي يكوِّن الطفل صورة ذهنية عنها ترتبط بطبيعتها.

قُدِّمت تلك المسرحية باللغة العربية الفصحى والحيَّة في الوقت نفسه، أي المستخدمة في الحياة اليومية المعيشة؛ مما يُعمِّق من ارتباط الطفل بثقافته وجذوره وتراثه العربي وتواصله مع أبناء الوطن العربي باعتبارهم أصحاب لغة واحدة، على عكس ما نرى في كثيرٍ من الأعمال المسرحية المُقدَّمة للطفل والتي تستخدم في الغالب اللهجات المحلية.

قيمة الفداء والتضحية من أجل الوطن والدفاع عنه ضد الأعداء وإعلاء قيمته على الفرد.

قيمة الحفاظ على تراث الآباء والأجداد والارتباط بالوطن.

قيمة العمل الجماعي وعدم التكاسل من أجل رفعة الوطن والمجتمع والذات.

قيمة التعاون والاتحاد ونبذ الفُرْقة بين الأشقَّاء والتسامح وقبول الآخر.

التعاهُد على الموت والعيش بحُريَّة وسلام وغرس قيمة الأمل والتفاؤل.

تعميق الإحساس بتراث الأجداد من خلال عرض التراث في صورة مسرحية؛ الأمر الذي جعل تقبُّله والوعي به أمرًا يسيرًا ومحببًا لدى الطفل، بدلًا من تقديمه بصورة تقليدية تعتمد على التلقين.

"عقد الحمَّام" و"أزرق سماوي" لمحمد ناصف (مصر)

ضمن سلسلة "هيَّا نقرأ" صدر عن دار المعارف للكاتب المصري محمد ناصف قِصَّتا عقد الحمَّام وأزرق سماوي، القصتان موجهتان لطفل ما قبل المدرسة. الأولى عقد الحمام وتتناول قصة الطفل سعيد الذي يريد أن يذهب إلى الحديقة ليلعب على المراجيح بمفرده، وفكر في حيلةٍ

يستطيع من خلالها فعل ذلك، حيث كانت المعلمة "هالة" قد فكَّرت في وسيلة للتمييز بين حمَّامَي البنين والبنات، فصنعت عقدين: أحدهما أزرق للبنين والآخر أحمر للبنات. وخرج سعيد – بعد أن حصل على العقد الأزرق - بحجة الذهاب للحمَّام لكنه ذهب ليفعل ما أراد باللعب على المراجيح بمفرده، وبينما هو كذلك شعر زميله ماركو بألم في بطنه وأراد الذهاب للحمام فطلبت منه المعلمة الانتظار حتى يأتي زميله سعيد، وبينما يزداد ماركو ألمًا تلاحظ المعلمة تأخُّر سعيد، وعندما تذهب بنفسها وجدت سعيد يلعب على المراجيح فأخذت العقد ومنحته لماركو، وكان عقاب سعيد هو الحرمان من المراجيح لمدة أسبوع.

هذه القصة تنتمي إلى النوع التعليمي؛ حيث إن عملية التعليم تتحسن وتصبح أكثر متعةً وإثارةً بوجود دوافع، فإذا كان الدافع موقفًا مسليًا وممتعًا، فستكون الفوائد التعليمية منه أفضل من الفوائد التعليمية التي تُجنَى من النصائح المباشرة، والقصة هنا تتطرَّق لثقافة الصدق الذي يمثل في الكون والحياة ضرورةً لا يمكن أن تستقيم الحياة بدونها، وهنا تبدو الرسالة التي يريد النصُّ إيصالها.

أول ما نلاحظه في هذه القصة أنها تدور في بيئة مدرسية بها حمَّامان: أحدهما للبنين والآخر للبنات، وهذه رسالة توعوية في غاية الأهمية بضرورة الخصوصية فيما يتعلق بالذهاب إلى الحمَّامات في الأماكن العامة.

كذلك تعالج القصة قضية الشعور بالآخرين والصدق في القول والعمل والبُعد عن المكر والخداع، وأن استخدام الحيلة أمر مرفوض لما قد يُسبِّبه من ضرر للآخرين.

نلاحظ أيضًا من أسماء الشخصيات أن أحدها يُدعى ماركو في إشارةٍ إلى التعايش واحترام التنوُّع بين المسلمين والمسيحيين، في رسالة تنويرية يريد الكاتب إلقاء الضوء عليها، كذلك اسم المعلمة هالة في إشارة إلى رمزية كونها مصدرًا مُشعًا للعلم والثقافة لدى الأطفال.

القصة أيضًا تُذْكي قيمة الصدق وعدم الكذب وعواقبهما، كما أن الكاتب قد اكتفى في عقاب "سعيد" بحرمانه من اللعب على المراجيح لمدة أسبوع، وهو شيء يمثل – وإن بدا عقابًا هيِّنًا – نوعًا كبيرًا من العقاب لدى طفل تمثل له المراجيح الشيء الكثير.

أما عن اللغة فلغة القصة سهلة مع تضمينها بعض المفردات التي ربما يسمعها الطفل للمرَّة الأولى؛ بُغيةَ الإسهام بشكلٍ كبيرٍ في ثراء المعجم اللغوي لديه مثل (منضدة، عقد).

أما الثانية فهي قصة "أزرق سماوي" التي تدور أحداثها في إحدى المدارس؛ حيث إن المعلمة

هالة قد أعلنت عن جائزة لأفضل تشكيل بالصَّلْصَال في فصلٍ يضم أطفالًا عاديين وذوي احتياجات خاصة، في إشارةٍ إلى حتمية دمج الأطفال من ذوي الهِمَم في التعليم والحياة، باعتبارهم جزءًا أصيلًا وفاعلًا في المجتمع لا يقلون عن غيرهم من الأصحَّاء، وتقوم المعلمة بوضع قطع الصلصال الملونة على المنضدة فيتبارى الأطفال في اختيار الألوان التي يحبونها حتى يفوزوا في المسابقة، لكن مروان لم يبقَ له إلا اللون الأبيض بينما لم تجد زميلته رؤى إلا اللون الأزرق، ففكر كلاهما ماذا يصنعان ليتمكنا من الفوز فاقترحت رؤى دمج اللونين معـًا ليخرج منهما اللون الأزرق السماوي، ففرحا به وشكَّلا حروف الهجاء ففرحت المعلمة واندهش الأطفال من تعاونهما، وحصلا على الجائزة وصفق لهما الزملاء جميعهم بحرارة، واحتفظت المعلمة بتشكيل الحروف لاستخدامها في تعليم الأطفال.

والقصة كما يبدو أيضا تدور في سياق تربوي تعليمي وتقع ضمن سلسلة "هيَّا نقرأ"، التي تشي لأول وهلة بما تطمح إليه من مغزى تعليمي تثقيفي. ولعلَّ أهم القضايا التي تناولتها القصة الموجهة أيضًا لأطفال ما قبل المدرسة هي قضية تقبُّل الآخر المختلف ودمجه مع العاديين، كما أنها تتناول أهمية الحافز – وإن لم يكن ماديًا - في إثارة دافعية الأطفال وتحفيزهم وإثارة شغفهم، فضلًا عن قضية التعاون التي تمثَّلت في مشاركة مروان ورؤى في تشكيل حروف الهجاء بالصلصال، ولعلَّ ذلك مناسب جدًا لأطفال تلك المرحلة الذين دائمًا ما يستخدمون الصَّلْصال داخل قاعات الدراسة؛ حيث تتحول قطع الصلصال من كونها مجرد لعب في السابق إلى مجال للإبداع والابتكار يمكن للطفل من خلالها أن يصنع أشياء ويُبدع في تشكيلها.

وأخيرًا، فإنه يُحمد للكاتب حرصه – بوصفه خبيرًا تربويًا – على الكتابة خِصِّيصًا لأطفال تلك المرحلة، مع الوعي بمُتطلَّباتها وخصائصها وطبيعة اللغة والمضامين التي ينبغي طرحها لها، وتقديم ذلك في سلسلةٍ مُوجَّهة لهم دون الخلط بين مراحل الطفولة المختلفة، وهو الفَخُّ الذي يسقط فيه كثيرٌ من الكُتَّاب الذين يتطلعون فقط إلى مجرد الكتابة ليس أكثر.

"محاكمة طيور بريئة" لإيهاب القسطاوي (مصر)

إيهاب القسطاوي أديب وكاتب مصري وقاصٌّ وروائيّ تخصَّص في أدب الطفل، صدرت له العديد من المُؤلَّفات القصصية، وله إسهامات بمجال الكتابة في أدب الطفل ونال العديد من التكريمات والجوائز، وهو الآن مدير كرسي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم "الألكسو" لخدمة الطفولة.

قصة محاكمة طيور بريئة الصادرة عن المركز القومي لثقافة الطفل، تقع القصة في إحدى عشرة صفحة ملونة تحتلُّ فيها الصور مساحة كبيرة تتفق مع خصائص الطفل في تلك المرحلة، والتي تتناول في سياق قصصي عددًا من القضايا وتلقي الضوء على مجموعة من القيَم والقيَم المضادة؛ بُغيةَ الانتصار لمعاني الخير والحق والجمال.

تدور أحداث القصة في إحدى الغابات حيث يدعو ملك الغابة إلى اجتماعٍ عاجلٍ يضم حيوانات الغابة كافة؛ الأمر الذي أثار دهشة الحيوانات والإحساس بالخوف لديهم فيتساءلون حول ماهية هذا الاجتماع وسببه، ثم سرعان ما يكتشفون أنه لمناقشة الشكوى المُقدَّمة من "تعلوب" ضد كُلٍّ من "الغراب" و"البومة" و"أبو قردان"؛ بتهمة الإساءة إلى سمعة الغابة وتشويهها بين بني الإنسان. وتبدأ المحاكمة وسط استغراب كامل من الحيوانات ويُستدعَى المتهمون واحدًا تلوَ الآخر بدءًا بالغراب ثم البومة ثم أبي قردان، وتنتهي المحاكمة ببراءة المتهمين الثلاثة من التُّهَم المنسوبة إليهم، وأن الإنسان وحده هو السبب فيما أصاب البيئةَ من تلوثٍ ودمارٍ وخرابٍ وحروب، فيفرح الجميع وسط تصفيقٍ حارٍّ من الحيوانات جميعها.

أول ما نلاحظه في هذه القصة هو موضوعها والقيَم التي تتبنَّاها وهي المفاهيم المغلوطة لدى البشر حول بعض الطيور والحيوانات؛ فالغراب دائمًا نذير شؤم والبومة رمز للقبح وأبو قردان متهم بعدم النظافة، وهي الأمور التي يسارع الكاتب عبر شخصيات قصته إلى تصحيحها بأسلوب مبسط يتفق وطبيعة طفل المرحلة المبكرة. والمُلاحَظ أن الكاتب قد قدَّم معلوماته بصورة مُشوِّقة تخلو من التقريرية التي لا تتفق مع طبيعة الطفل الذي يرفض الأوامر والنواهي المباشرة بل يميل إلى التعلُّم من خلال المواقف؛ ومن ثَمَّ فإن الكاتب لم يقتصر على القيام بدوره بوصفه مبدعًا بل مزج بين التعليم والتربية والترفيه، باعتبار الترفيه هو الجسر الذي تعبر عليه أهداف أدب الطفل كافة.

ولغة القصة لغة تتناسب مع طفل المرحلة المبكرة كما تُسهم في ثراء معجمه اللغوي، فضلًا عن تشكيل ثقافته العامة وتصحيح المفاهيم المغلوطة التي جرت العادات السيئة على الترويج لها.

من زاويةٍ أخرى فإن الكاتب لم يكتفِ بمناقشة تلك القضية المتعلقة بتصحيح المفاهيم المغلوطة والأفكار الشائعة، بل تناول بشكلٍ غير مباشر قضية التغيُّرات المناخية وكيف أن الإنسان قد أسهم في تلويث البيئة والإساءة إليها، محاولًا إلصاق التهم جُزافًا بغيره متناسيًا أن العمل

وحده هو أساس التمييز بين إنسان وآخر أو كائن وآخر، رافضًا الاعتراف بفكرة التفاؤل والتشاؤم والاتجاه نحو التواكُل استنادًا إلى تلك الأفكار غير الصحيحة.

كما حرص الكاتب على أن تتضمَّن القصة بعض المعلومات المناسبة لأطفال المرحلة المبكرة حول الحيوانات التي وُجِّهت إليها الاتهامات، منها الغراب الذي ورد ذكره وتم تكريمه في الكتب السماوية كالقرآن والإنجيل فضلًا عن كونه صديقًا للفلاح.

وفي سياق القصة أُتيح للطفل أن يتعرف إلى معلومات تتعلق بالبومة التي تحمل فوائد جمَّة للإنسان، وتحتل مكانة كبرى منذ قدماء المصريين الذين عدُّوها رمزًا للحكمة والذكاء، فضلًا عن كونها تتغذى على القوارض التي تسبب الضرر للمحاصيل الزراعية؛ ومن ثَمَّ فهي ذات فوائد جمَّة للإنسان وهو ما يتناقض تمامًا مع الفكرة الشائعة عنها.

كما تحدثت القصة عن أبي قردان وفصائله وأنواعه وفوائده للأرض والإنسان وأن المبيدات الضارة هي سبب بُعده عن الأرض، في إشارة إلى دور الإنسان – ربما غير المقصود - في تلويث البيئة.

جاءت فكرة المحاكمة مناسبة لإحداث نوع من التشويق على الأحداث التي تضمَّنتها القصة، مع تعويد الطفل على ثقافة التعاطُف وتقبُّل الآخر، وإثارة شغفه في انتظار حكم ملك الغابة ببراءة المتهمين الثلاثة.

"عَزُّوز يفتقد ماما" لوفاء الشامسي (سلطنة عُمَان)

وفاء الشامسي كاتبة وأكاديمية عُمانيَّة حاصلة على درجتَي الماجستير والدكتوراه في مناهج وطرائق تدريس اللغة العربية، وهي واحدة من رائدات أدب الطفل واليافعين على مستوى سلطنة عُمان.

أديبة ومُحكِّمة في عدة جوائز على مستوى الوطن العربي وحصلت على جائزة أدب الدولة القطرية في مجال الكتابة المسرحية للطفل 2020م على مستوى الوطن العربي، كما أن لها عددًا كبيرًا من الأعمال المنشورة في مجال أدب الطفل واليافعين.

والقصة تحكي عن عَزُّوز الذي اعتاد اللعب وقضاء وقت التسلية والمتعة والتسوق مع والدته؛ ولذلك كان سعيدًا وعبَّر عن ذلك برسم صورة له بوجه سعيد، ولكن بعد انشغال أمه حزن كثيرًا وبدأ يشعر بالوحدة. ففكر بأن يتحول إلى حاسوب لتقضي أمه أمامه وقتًا طويلًا، ولكن بعد مدة تركته والدته لتخلد للراحة والنوم. ففكر عزوز ليصبح هاتفًا محمولًا بيدِ أمه ظنًا منه أنها لن

تتخلى عنه أبدًا ولكنه حزن حينما أغلقت الهاتف. فرسم نفسه حزينًا وكتب على الرسم عزوز يفتقد ماما، ووضع الرسالة على مكتب والدته. وفي الصباح وجد عزوز والدته في الغرفة وهي تضمُّه وتقول وأنا أفتقدُك كثيرًا، وسأمضي معك وقتًا أطول.

في حقيقة الأمر فإن الكاتبة وفاء الشامسي قد تناولت موضوعًا مغايرًا ببساطة عميقة؛ إذ تتناول قضية مَعِيشة يمرُّ بها كل بيت عربي في اللحظة الراهنة، لا على مستوى الآباء والأمهات وغيرهم من الكبار فحسب بل على مستوى الكبار أيضًا، وهي قضية وسائل التقنيَّة التي جعلت من العالم قريةً صغيرةً صار فيها بمقدور الإنسان في نقطةٍ ما من العالم أن يعرف في اللحظة ذاتها ما يدور في أبعد نقطة من العالم. ولعل هذا شكل من أشكال الضريبة التي يدفعها الفرد جرَّاء التكنولوجيا التي اقتحمت البيوت والحياة، فتحولت وسائل التواصُل الاجتماعي إلى وسائل للعزلة داخل البيت الواحد والأسرة الواحدة؛ إذ إنه ورغم إسهامها في التواصل على المستوى العام فإنها أسهمت في خلق حالة من العزلة، التي أسهمت بلا أدنى شك في إصابةِ كثيرٍ من أطفال اليوم بأمراض اجتماعية وعضوية كثيرة لعل أبرزها هو التوحُّد.

لم يكن بمقدوري إلا أن أتعاطف مع البطل عزوز الذي شعر بافتقاده لأمه وانشغالها عنه ورغبته في التخلص من ذلك الشعور مهما كلفه الأمر، حتى لو جعل من نفسه حاسوبًا أو هاتفًا نقَّالًا رغبةً في إرضاء أمه، وحرصًا على أن تظل معه في صراع بين حميمية المشاعر الإنسانية ودفئها وجفاف الآلة مهما كانت وسيلة ترفيه وتسلية. وهنا كان الانتصار للإنسان الحي بمشاعره وإنسانيته لتبقى دائمًا الرسالة التي نريد إيصالها، وهي أن الآلة لا يمكن أن تكون بديلًا عن الإنسان بل يمكنها فقط أن تكون عاملًا مُساعِدًا.

أما عن اللغة فهي رشيقة وسلسلة تنفذ وفاء الشامسي إلى كل قلب عبر بطلها ووالدته، وبعنوان يمثل جملةً إسميَّة توحي بالثبات والاستمرار والأثر الفادح الذي أحدثته وسائل التقنية حين يُساء استغلالها؛ فيفقد الناس مشاعرهم ويتحوَّلون بدورهم إلى آلاتٍ موازيةٍ حتى مع أقرب الناس إليهم، في رسالة تربوية وتوعوية يمكن لها أن تصل إلى كل طفل يرى ذلك كل يوم في مختلف مجريات حياته، بل إنه يمارسه بشكل شخصي ويلاحظ ممارسيه لحظةً بعد أخرى. وهنا يتجلَّى الدور الحقيقي لأدب الطفل وبخاصةٍ في المرحلة المبكرة، حين يدرك الكاتب أن رسالته لا تتمثَّل في إمتاع الطفل وتسليته فحسب، بل في تبصيره وتوعيته عبر إلقاء الضوء على المشكلات التي تمسُّ حياته وتؤثر فيها تأثيرًا كبيرًا وربما تكون سببًا في افتقاده لأعزِّ الناس إليه، في تناولٍ رائعٍ

لقضية الدفء الأُسَري والحرص على إرضاء الأهل وخلق علاقة حميمية وسوية معهم، لا يؤثر فيها أي عامل خارجي حتى لو كان التقنيَّة التي أثرت في مناحي الحياة كافة.

والرسالة هنا ليست مُوجَّهة للطفل فحسب بل هي رسالة تخاطب كل فرد على كوكب الأرض؛ فهي قضية لا يعاني منها الإنسان في المنطقة العربية بل هي قضية عالمية، وهو ما يؤكد مدى وعي الكاتبة في تناول قضايا عالمية ومُوغِلة في المحلية في آنٍ معًا لتنجح في تحقيق معادلة صعبة حقًا.

تركِّز الكاتبة أيضًا على ضرورة الاستدفاء بحضن العائلة عوضًا عن الآلة؛ فحين يفشل عزوز في إبقاء "ماما" معه يقرر أن يتغيَّر ويصنع شيئًا يجعلها تتنبه إليه، وهنا يأتي دور التعبير عن المشاعر بالرسم تارةً وبالكتابة تارةً أخرى فيكتب أنا أفتقدُك يا ماما، وهو ما كان له الأثر البالغ فيها فتقرر ألَّا تتخلى عنه أبدًا، وأن تكون حريصة دائمًا على تحقيق معادلتها الصعبة في التوفيق بين متطلباتها كافة، في رسالةٍ تؤكِّد على أن الأبناء دائمًا هم أغلى ما يمتلك الآباء والأمهات.

بقي أن نشير أيضًا إلى الدور البارز الذي أحدثته الصور المصاحبة للقصة؛ فقد كانت أشبه بقصة موازية يمكن من خلالها للطفل استنتاج الأحداث حتى لو لم يتمكَّن من قراءة الحروف، وهو أمر يتفق وطبيعة الطفل في تلك المرحلة المبكرة والذي قد لا يُجيد في بداياتها القراءة، بل يعتمد على الفهم عبر الوسائط البصرية المتمثلة في الصور المُعبِّرة التي تصل إلى عقل الطفل ووجدانه، وتُسهم في توعيته بطبيعة الرسائل المراد إيصالها دون الحاجة حتى إلى المعرفة بالقراءة.

ويُحسب للكاتبة هنا أن النهاية كانت عادلة؛ حيث تعود الأم لممارسة دورها الأول والحقيقي فتقرر العودة لطفلها، مُحققةً توازنًا محمودًا بين استخدام التكنولوجيا مع عدم إهمال وظيفتها الأساسية في الاعتناء بأولادها وقراءة القصص لهم واصطحابهم أثناء التسوُّق، في إشارة إلى حاجة طفل اليوم بل وكُتَّاب أدب الطفل إلى خلق حالة من المزج بين الرقمي والورقي، وأن أحدهما لا يمكن أن يطغى على الآخر.

"سِرُّ ألوان أحمد" لأماني الناجم (المملكة العربية السعودية)

لمرحلة الطفولة المُبكِّرة أهمية كبيرة في تأهيل الطفل علميًا واجتماعيًا ونفسيًا وإعداده إعدادًا مدروسًا سليمًا، كما أنها هي مرحلة النمو الاجتماعي السريع ووضع الأساس لتكوين الكثير من ميول الأطفال واتجاهاتهم، وهي ذات أهمية في بناء شخصياتهم وتوجيه سلوكهم وتمتد آثار هذه المرحلة لسنوات طويلة في حياة الفرد.

وقصة سِرّ ألوان أحمد للكاتبة السعودية الدكتورة أماني سعد الناجم هي قصة مُوجَّهة في الأساس لطفل المرحلة المبكرة، وهي من ذلك النوع من القصص الذي يُسهم في جذب الطفل؛ ذلك أنه يحتوي على نصٍّ مرسومٍ مُوازٍ لا يقلُّ في أهميته عن النص المكتوب؛ إذ يحتل مساحة كبيرة من كل صفحة من صفحات القصة التي تتناول قصة طفلين هما ليلى وأحمد اللذان يحبان الرسم، لكن ليلى تمتلك علبة ألوان كبيرة تُمكِّنها من رسم كل الأشياء بلونها الحقيقي لكن علبة ألوان أحمد صغيرة؛ ومن ثَمَّ فإنه يرسم الأشياء على غير حقيقتها فهو يرسم شَعْر الطفل بلون رمادي ووجه الطفل بلون أخضر كما لو كان كائنًا فضائيًا، ويرسم العصير بلون بُني فيبدو كما لو كان مياهًا غازية ضارة للأطفال في مثل تلك المرحلة العمرية مما جعله يشعر بالحزن؛ الأمر الذي يُحزن ليلى في تعبيرٍ عن مشاعر المشاركة الوجدانية والشعور بالآخر، إذ تحاول مساعدته في نهاية مفتوحة تتيح لخيال الطفل أن يحلق باحثًا عن سر ذلك، في حيلةٍ بارعةٍ من الكاتبة لترك أفق التأويل مفتوحًا، وإن بدا سهلًا وميسورًا فإنه – وفقًا لطفل المرحلة المبكرة - شيء يدعو إلى التساؤل والبحث عن إجابات قد تكون متعددة. وهنا تبرز مهارة حل المشكلات إذ تطرح الكاتبة القضية وتترك خيال الطفل يبحث عن حل أو حلول متعددة، وهذا جوهر ما يسعى إليه الأدب من إثارته للخيال وبحثه الدائم وراء ما ليس موجودًا، وهو ما يتمثل في نهاية القصة التي جاءت في صورة سؤال للمُتلقِّي الطفل هل تحب الرسم؟ في انتظار إجابات متعددة طويلة أو قصيرة لكنها كافية كي يعبر الطفل عن نفسه وعما يدور بداخله.

في النهاية لا بُدَّ أن نشير إلى أن لغة الكاتبة سهلة ذات جُمَل قصيرة تنوَّعت بين الجمل الإسميَّة والفعلية، كما تنوعت بين الجمل الخبرية والإنشائية المتمثلة في أساليب الاستفهام المتكررة لإثارة الطفل وجذب انتباهه، وهو ما يوضح أن الكاتبة واعية بالأسس الفنية لأدب تلك المرحلة التي تعتمد على إثارة الأسئلة البسيطة أكثر مما تقدم الإجابات الجاهزة، مع وجود عُقْدة بسيطة تتفق وفكر الطفل وخياله وتسمح له - دون أن يقع في فخ التعقيد - بأن يطلق العنان لخياله ويحكم بنفسه على سلوكيات الآخرين، لاسيَّما تعاطف ليلى مع أحمد وأن المشاركة الوجدانية أمر واجب.

توصيات مقترحة

- ضرورة تعاون المؤسسات المَعنيَّة بالطفولة المبكرة من أجل خلق حالة من الحراك الأدبي عبر ورش عمل وندوات ومؤتمرات يشارك فيها أطفال تلك المرحلة.

- حتميَّة التزاوج والدمج بين الورقي والرقمي دون أن يطغى أحدهما على الآخر.
- مواكبة تقنيات الذكاء الاصطناعي وآليَّاته بما يحفظ حقوق المؤلفين ويحافظ على دورهم بوصفهم المبدعين الأساسيين.
- ضرورة مراعاة كتاب أدب الطفل للخصائص النفسية والعمرية لكل مرحلة من مراحل الطفولة على الرغم من تداخلها؛ ضمانًا لإيصال رسالة أدب الطفل على النحو المَرجوّ.
- مراعاة صُنَّاع المحتوى المقدم للطفل ضرورةَ المواءمة بين الشكل والمضمون؛ إذ إن غالب ما يُعرض من كتب – لاسيما – الورقي منها - يراعي القيَم والمضامين، ولكن الأغلب الأعم يُعرض في إطار لا يتناسب مع طبيعة طفل المرحلة فكأنها كتابات كتبت لتُحكى لا ليقرأها الطفل.
- التوسُّع في نشر الكتب والأبحاث التي تتناول أدب تلك المرحلة وأسسه وخصائصه النفسية والإبداعية.
- أن تتضمن مناهج مرحلة الطفولة المبكرة في الدول العربية نصوصًا تتلاءم مع طبيعة أطفال المرحلة وتتحدث بلسانهم، مع ضرورة تضمين المناهج مقررًا لأدب الطفل للتوعية بأسسه وسماته الإبداعية والنفسية.
- التوجُّه نحو تفعيل مبادرات المركز القومي لثقافة الطفل في نشر إبداعات الأطفال وكتاب الأطفال ومناقشتها والتعريف بها، مع فتح قنوات لعقد شَرَاكات مع المؤسسات الأخرى المعنية بالطفولة المبكرة؛ وبخاصة المجلس القومي لثقافة الطفل والشبكة العربية للطفولة المبكرة وغيرها من المؤسسات الرائدة.
- ضرورة العمل على زيادة تمكين الطفل العربي وتنمية وعيه بآليَّات عصره المَعِيش عصر ما بعد الثورة الصناعية الرابعة والميتافيرس، وهو الأمر الذي يتطلَّب بذل مزيد من الجهد من المؤسسات المَعنيَّة بالطفولة، على نحو ما انتهجه المجلس العربي للطفولة والتنمية في هذا الإطار منذ فترة.
- عقد وَرَش وحلقات نقاشيَّة تضم مبدعين وأطفالًا حول أدب تلك المرحلة والاستماع إلى الأطفال.
- ضرورة أن يعيش الطفل العربي متسلحًا بمقتضيات العصر وألَّا ينعزل عن أقرانه، مع التوعية بالاستخدام الرشيد للتقنية بما يحفظ له الحفاظ على القيَم مع اللحاق بركب التطوُّر السريع.

ثانيا المراجع

- أحمد زلط: أدب الطفولة أصوله ومفاهيمه- رؤى تراثية، الشركة العربية للنشر والتوزيع، ط4، سنة 6991، القاهرة، مصر
- أحمد نجيب (1991): أدب الاطفال علم وفن، دار الفكر العربي، ط6، القاهرة، مصر
- آسية بودرع(2018): أدب الطفل التفاعلي قضايا في النظرية والتطبيق، مطبعة الخليج العربي، تطوان
- حسن شحاتة (2008): مستقبل ثقافة الطفل العربي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.
- حسن شحاته (1996): أدب الطفل العربي دراسات وبحوث، الدار المصرية اللبنانية، ط5
- خديجة باللودمو (2018). الأدب الرقمي العربي الموجهة للأطفال دراسة في المنجز النقدي. رسالة ماجستير منشورة. كلية الآداب واللغات. جامعة قاصدي مرباح ورقلة. الجزائر,
- دار بارني ترجمة أنور الجمعاوي (2015): المجتمع الشبكي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ط1.
- زهور كرام (2021). الأدب الرقمي أسئلة ثقافية وتأملات مفاهيمية. الرباط: مطبعة الأمنية
- سعيد يقطين (1997): تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي بيروت.
- سلمان الأفنس(2013): الأدب التفاعلي، إشكالياته والمفهوم وآفاق الإبداع، نشر ضمن أعمال مؤتمر الأدباء السعوديين الرابع، السجل العلمي وبحوث المؤتمر: الأدب السعودي والتقنية.
- شوق عباده النكلاوي(2019). المسرح وتنمية ثقافة الطفل العربي، الطفولة والتنمية. المجلس العربي للطفولة والتنمية. القاهرة.36.
- شوق عباده النكلاوي (2020). مسرحة المناهج من التعليم للفن، الثقافة الجديدة، الهيئة العامة لقصور الثقافة
- شوق عباده النكلاوي (2021). المسرح وثقافة الطفل العربي دراسة في جماليات النص والعرض، سلسلة دراسات وبحوث، المركز القومي لثقافة الطفل، القاهرة
- شوق النكلاوي (2021). التعليم المدمج هل نملك رفاهية الاختيار. مجلة خطوة. المجلس العربي للطفولة والتنمية. مصر. (41). (36-38).
- العربي بنجلون، ثقافة الطفل قيم ومبادئ إنسانية، منشورات دار التوحيدي، 2016.
- عمرو دواره، مسارح الأطفال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2010.
- العيد جلولو د.ت: القراءة التفاعلية للأطفال قراءة الأدب التفاعلي نموذجًا، دراسة في ضوء الوسائط الحديثة، جامعة قاصدي مرباح بورقلة، الجزائر
- فاطمة البريكي(2006): مدخل إلى الأدب التفاعلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1.
- فرج الظفيري (2013): قصص الأطفال الإلكترونية، اقتران الأدب بالتقنية، بحث منشور ضمن أعمال مؤتمر الأدباء السعوديين الرابع، السجل العلمي المدينة المنورة.
- فوزي سعد عيسى (2008). أدب الأطفال (الشعر – مسرح الطفل – القصة). الإسكندرية. مصر: منشأة المعارف.
- كمال عبد اللطيف (2012): المعرفي الإيديولوجي الشبكي، تقاطعات ورهانات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، ط1.
- لبيبة خماري (2014): شعرية النص التفاعلي، آليات السرد وسحر القراءة، القاهرة، سلسلة السرد العربي (8)، إشراف: سعيد يقطين، القاهرة، ط1.
- هادي نعمان الهيتي: أدب الأطفال فلسفته فنونه وسائطه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر
- يوسف عمر (2020). الأدب الرقمي الموجه للأطفال- مقاربة مفهومية. مجلة مدارات في اللّغة والأدب. مركز مدارات للدراسات والأبحاث. جامعة العربي التبسي. الجزائر. 1(4). (322-350).